الطفولة المهملة

بذرة المجتمع المريض

بقلم حضرة صاحب السعادة عبدالسلام الشاذلى باشا

لست أعنى بالطفولة المهملة تلك الطفولة المشردة التى نراها فى الطرقات والأزقة وأمام الجوامع وعلى سلم الترام ، أشباحا ناحلة هزيلة ممقعة اللون شعثاء غبراء ترتدى الأسمال البالية وتنظر بتلك العيون الغائرة يعلوها الذباب والصديد ، وهى تمد إلينا أيديها للشحاذة أو للتنشل عند الفرصة السانحة !

لست أعنى تلك الطفولة ، فهى لا تحتاج إلى التنبيه ، ومنظرها وحده أبلغ من كل كاتب وكل خطيب ، وبقاؤها هكذا — ولو لم ينبه قلم واحد إليها — شاهد على إهمال المجتمع فى حق نفسه وحق الإنسانية .

إنما أعنى بالطفولة المهملة الطفولة المصرية كلها ، حتى التى تسكن القصور وتذهب إلى المدرسة وتلبس أفخر الملابس وتأكل أدسم الأطعمة وتستمتع بشتى المتاع . وليس المتشردون وحدهم من الأطفال هم المهملون ، فالواقع أن كل طفل فى مصر يعد مهملا . والإهمال صنوف ودرجات :

فالطفل المدلل الذى تحاب كل رغبة ، وتسهل أمامه كل العقبات فلا يجهد نفسه فى تذليل عقبة واحدة ، ولا يحس أن الحياة تطالبه بالعمل وأن المجتمع يطالبه بالإنتاج ، لأن أبويه وفرا له كل ضرورى وكل كمالى وعاشا تحت رحمة رغائبه وشهواته وعوداه النعومة والميوعة والدلال . . .

هذا الطفل مهمل بكل تأكيد أشد من إهمال الطفل المحروم الذى قست عليه الحياة وعضه الشظف وجرعته الأحداث كؤوس الحرمان ، فربما كان فى هذا فضيلة تفسية أو وراثة كامنة تثيرها المحن وتذكيها الحرمان ، فيغدو عضوا نافعا فى الحياة بعد التغلب على العقبات . أما ذلك الطفل المدلل الرقيق المراح ، المائع الأخلاق ، فسينشأ رجلا مريضا مستهترا لا يعرف للمجتمع عليه حقا ، بل يطلب من الجميع أن يكونوا مذين لرغباته محققين لشهواته ، وإلا برم وتخط وانقلب عابثا يشقى به أهله ويشقى به المجتمع . وتلك علة كثيرين من الأطفال ولا سيما فى أوساط الأغنياء !

والطفل المتروك للخدم يحيا معهم معظم أوقاته لأن أمه مشغولة بالسهرات والحفلات والاستقبالات والأزياء والزينة، ووالده مشغول بالعمل فى الديوان أو السهر مع الإخوان... هو طفل مهمل بكل تأكيد كزميله المتروك لرفاق الطريق وزملاء السوء . فالأول — وهو فى الغالب من أبناء السراة — سيقبس أخلاقه وألفاظه وطباعه من أولئك الذين يعيش معهم معظم حياته : من الخدم الذين نعرف جميعا مستوى أخلاقهم ونسمع كثيرا من قاموسهم اللفظى، فنحن صائرون فى العد بسبب هؤلاء الأطفال المهملين إلى أن نكون سادة ولكن فى أخلاق السوقة ، و إلى أن نكون رؤساء وحكاماً تربوا فى أحضان الخدم أو من هم فى حكمهم من المربيات . و إذا ظلت الحال كذلك فسنستقبل جيلا بائسا منحط الطباع والألفاظ . فأبناء السراة وأبناء السوقة سيكونون سواء لأن المشرفين على تربيتهم جميعا فى الطفولة هم الخدم فى بيوت الأغنياء ورفاق السوء فى بيوت الفقراء !

والطفل الذى يولد من أبوين أحدهما أو كلاهما مريض، هو طفل مهمل لحقه الإهمال قبل أن يجىء إلى هذه الحياة ، وورثه وهو جنين فى ظلام الغيب ، ومهما تكن التربية أو الملاحظة فى المستقبل فلن تنجيه من لعنة الوراثة ، ولن تعفيه من الضريبة الفادحة التى يؤديها عن أبوين مجرمين قذفا به إلى هذا العالم معدّا للمرض والإجرام والتشرد ... وأخيرا للسجن أو الموت بعد العذاب والآلام .

ونسبة هؤلاء الأطفال نسبة مروعة لأننا نسىء فهم الحرية حتى نخلط بينها و بين الفوضى ، وتأبى لنا الرحمة والبر بالآباء والأمهات أن نمنعهم من الزواج والتناسل و إيلام الألوف من الأطفال الابرياء .

والطفل الذى ينفصل أبواه بالطلاق أو بغيره أو يشاركه فى الأبوة أطفال من زوجة أخرى ، أو يعيش بين أبوين يسودهما جوّ من الشقاق والنزاع ، هو طفل مهمل بلا شك حتى لو توفرت له كل الرغائب المادية فى الحياة، لأنه سينشأ محروما من الرعاية العائلية ومن الحنان الأبوى أو الأمومى ، ومن جوّ الصداقة الذى يغرس فى نفسه حب المجتمع و ينشئه رجلا عطوفا بارا بأهله وقومه ووطنه، أو امرأة رحيمة كاملة تنشئ أسرة سعيدة. إنه سينشأ مشبع النفس بالحقد وحب النزاع وشراسة الطباع وكراهة المجتمع، لأنه لقن هذا كله فى لبيئة المشوشة التى نشأ فيها واطبعت آثارها فى نفسه وأخلاقه وطريقة فهمه للحياة وللعلاقات بين الناس .

والطفل الذى لا نعنى بتغذيته الغذاء المناسب سواء بالافراط أو التفريط ، هو طفل مهمَل ، لأنه سينشأ مريضا بأمراض التغذية الناقصة أو التغذية المفرطة وكلاهما وخيم العاقبة ، وقد ثبت أن للغذاء أثرا فى التفكير والأخلاق وفى تكوين الشخصية لما له من العلاقة بالجسم و بالغدد التى تهيئ مصير الطفل والرجل أو المرأة .

وتسعة وتسعون فى المائة من أطفالنا يتعرضون لهذا النوع من الإهمال ، و يشاركهم الكبار فى هذا ، لأننا جميعا — حتى المثقفين — لم ندرس شيئا عن التغذية الصحية ، والهيئات الطبية ذاتها لم تعن بالتخصص فى دراسة الأمراض الغذائية والأطعمة الصحية ، فأغنياؤنا وفقراؤنا على السواء لا يعرفون كيف يختارون طعامهم ، وسنبقى كذلك ما لم تصبح شؤون التغذية مادة أساسية فى بعض مراحل الدراسة .

والطفل الذى لا تراعى ميوله الوراثية واستعداداته الطبيعية فى توجيهه إلى الدراسة و إلى الحرفة هو طفل مهمل شقى بدراسته و بحرفته ، ونحن لا نلق بالنا إلى شىء من هذا ، فالوالد يختار لابنه نوع الدراسة التى تؤهل لمستقبل مضمون ، بغض النظر عن ميوله واستعداداته الذاتية ، والمدرسة تتلق هذا الطفل فتسلكه فى عداد تلاميذها كيفما اتفق ، وتسوقه سوقا مع الآخرين غير مفكرة فى حقيقة اتجاهه الطبيعى . . . يصنع الوالد هذا لأنه فى الغالب جاهل بكل دراسة نفسية ولو كان متعلما ، وتصنعه المدرسة لأنها جاهلة كذلك ، ولأنها مثقلة الكواهل بالنظم المدرسية العتيقة و بالعلوم المزدحمة فى البرنامج و بالامتحان ونتائج الامتحان ، ولأنها يائسة متبرمة ساخطة بسبب الغبن فى الرزق والتقدير الذى ينصب على النظار والمدرسين منشئى الجيل .

ومعظم أطفالنا يتعلمون مواد ليس لديهم أى استعداد لتعلمها ، و يحترفون حرفا بعد تخرجهم لا تؤهلهم طبائعهم لها ، وهم يشقون بذلك التعلم و بهذه الحرف ، و يخفقون أو يخيبون ، ونحن المسئولون عن شقائهم وعن إخفاقهم وخيبتهم ، لأننا نسوقهم سوقا كأنهم آلات فى الحياة .

والطفل الذى ننسى طفولته فى البيت والمدرسة ، لأننا نريد إنضاجه قبل الأوان ، فلا نلق بالنا إلى طفولته ، ولا إلى طريقة تفكيره فى هذه الطفولة ، و إنما نجعل همنا كله أن نصب المعلومات فى ذهنه صبا بطريقتنا نحن وعقليتنا نحن ، فإن لم تكفنا ساعات الدراسة عمدنا إلى الواجبات المنزلية نكظ بها وقت التلميذ كظا ، ونوصى أولياء الأمور أن يلاحظوا تأدية أبنائهم لهذه الواجبات !

هذا الطفل مهمل أشد الإهمال ، ترتفع درجات إهماله كلما ارتفعت درجات العناية بإنضاجه قبل الأوان ، ومخاطبته ومعاملته على أسلوب الكبار ، وكل برنامج مدرسى يقتضى من الطفل جهدا خاصا بعد مبارحة المدرسة هو برنامج فاشل فى حاجة إلى النظر والتعديل .

والطفل الذى لم يعن البيت ولم تعن المدرسة بتقوية شخصيته و إبرازها واستخدام قواه الكامنة جميعها وتدريبه على الحياة الاجتماعية والتعاون مع المجتمع ، ولم توجه عناية خاصة لتقوية أخلاقه و إنماء فضائله وتربية ذوقه — هو طفل مهمل سيخيب فى حياته و يصطدم بالمجتمع الذى لم يمرن على التعاون معه .

ونحن فى البيت وفى المدرسة لا نعنى بشىء من هـذا كله ، فالبيت مشغول بشئونه عن الزهرة نابتة فى أحضانه ، والوالدان لا يعنيان بشخصية طفلهما وأخلاقه بعض عنايتهما بطعامه ولباسه . أما المدرسة فهى مكان لصب القوالب لا للتربية ولا لملاحظة الشخصية ولا للتدريب الاجتماعى والتهذيب الخلق ، لأنها مشغولة عن ذلك بالامتحان وحشو المعلومات ، وليس لها من الحماسة للعمل ما يجب لمهمتها الخطيرة .

والطفل الذى لا يجد مكتبة أطفال تخاطبه بلغته وتمشى مع تفكيره وترمى إلى تحليته وتنشيطه وإشاعة البهجة والمرح فى حياته قبل أن ترمى إلى تلقينه المعلومات الجافة ، ولا يجد كذلك حدائق الأطفال المجهزة بأدوات اللعب المناسبة لعقليته الصغيرة ، ولا يجد المدرس أو المشرف الذى يرعاه فى مكتبته و يوجه خطواته برفق وعطف وحكمة ، والوالدة أو المشرفة التى ترافقه فى حديقته المعدة لألعابه — هو طفل مهمل ، لأن طفولته تكبح فلا تجد المجال صالحا لنموها ، وتهدر فلا تعيش فى الجو الطلق المرح الذى يغذيها .

ونحن إلى هـذه الساعة لم نؤلف مكتبة للاطفال ، ولم ننشئ حديقة خاصة بهم ، ولم نخصص للطفولة أياما أو أسابيع فى الحدائق العامة نبيحها لهم ونشجعهم على غشيانها بالتشويق والهدايا والألعاب ، ولم نفطن إلى أن الساعة التى يقضيها الطفل فى مكتبته أو فى حديقته أحدى ألف مرة من التى يقضيها فى حجرة الدرس و لاستذكار ، لأن المكتبة تغريه بالاطلاع الحر وتنمى فيه الرغبة فى المعرفة والمثابرة على القراءة ، تلك الخاصة المفقودة التى تقف دون رقينا الفكرى فى مستقبل الأيام . ولأن الحديقة تفتح جوانب إحساسه وتصقل ذوقه وتربى خلقه من حيث لا يشعر .

ونحن إذا حاولنا مرة أن نقدم للطفل قصة اتجه همنا إلى إبراز " المغزى " وخصصنا له مكانا فى نهايتها وسقناها بأسلوب جاف كأسلوب الوعظ يكثر الطفل فيها . فى حين أن قصة الطفل يجب أن يكون مغزاها هو اللذة والنشاط وتنمية الخيال .

* * *

هذا الإهمال الذى عددت بعض مظاهره منشؤه أننا لا نحسب حسابا لمرحلة الطفولة الخطيرة ، ولا نقدر أنها المرحلة الحاسمة فى بناء الشخصية وتكوين الأخلاق والعادات ، والرصيد الذى ينفقون منه مدى الحياة ، وأن كل عناية وكل إصلاح بعد هـذه المرحلة إنما هو طلاء جميل فوق بناء مختل . ومن أعجب الأشياء أننا نؤجل كل عناية وكل تربية ريثما تنتهى هذه المرحله ، ونتوهم أن هذه الفترة لا تصلح للتهذيب والتوجيه ، ثم نأخذ فى هدا بعد فوات الأوان !

ليس للدولة ولا للمجتمع ولا للأسرة سياسة مرسومة للطفولة، وليس للتشريع ولا للتعليم وجهة نظر خاصة يسعى لتحقيقها ، أو هدف معين يرمى إليه ؛ والطفولة فى نظر الجميع فترة انتظار وهى فى حقيقتها فترة تكوين .

نحن لا نعرف ماذا نريد من أطفالنا ، ولم نرسم صورة واضحة لأغراضنا من تربيتهم ، لأننا لم نرسم صورة واضحة للمجتمع الذى نريده ، ولا للمستقبل الذى ننتظره ؛ فكل شىء فى طفولتنا وفى مجتمعنا وفى مدارسنا يسير حيثما اتفق ، وكل شىء ينبت كما تنبت الحشائش الشيطانية فى الحقول ، بلا سبب ولا غاية ولا وجهة مقصودة ولا هدف مرسوم .

فنحن إذن — دولة ومجتمعا — مسئولون عن كل طفل يخيب فى حياته أو يخفق أو يشقى ، لأننا لم نعن به ولم نفحص عن قواه واتجاهاته ، ولم نوجهه الوجهة التى يفلح فيها ويسعد . ونحن مسئولون كذلك عن هذا المجتمع الذى يخبط فى كل اتجاه ، ويشيع فيه السخط والشقاء والانحراف والتفكك ، لأن بذوره فى الطفولة نشأت بدون رعاية ولا حماية ولا توجيه ولا صيانة .

وقد فطنت شعوب الدنيا الراقية إلى خطورة المرحلة الأولى من حياة الأفراد فوجهت إليها أكبر قسط من الاهتمام ، وقام علماء النفس وعلماء التربية وعلماء الطب والتغذية والحكومات والهيئات بكل جهد واجب لدراسة هذه المرحلة ثم الانتفاع بهذه الدراسة فى جميع فروعها .

وها هى ذى الحرب تذهل الحكومات والهيئات عن كل شىء ولكنها لا تذهلها عن الأطفال وحماية الأطفال . فانجلترا فى صراعها الرهيب الجبار تشغلها مشكلة ترحيل الأطفال إلى المناطق المأمونة ، وفرنسا فى محنتها القاسية الأليمة لا يعنيها فى شئون الأمة أكثر من غذاء الأطفال ودواء الأطفال ، وجمعيات الصليب الأحمر فى كل مكان وجه همها إنقاذ الطفولة من الموت والجوع والمرض فى هذا الصراع .

ولا أريد أن أضرب الأمثال بأمم الشمال التى تمنح الآن كل طفل عناية فردية شخصية وتتيح له فرصة لإظهار مواهبه وتنمية شخصيته مهما كان نوعها ، وتهيئ لوسط الصناع له شخصيا مهما كان شاذا أو مريضا أو ضعيف الادراك والحواس ، ذلك أنها تحسب كل طفل جزءا من الثروة القومية تمنحه من الاهتمام والعناية ما تمنحه لتقدير ميزانيتها العامة ومسائلها الكبرى فى الداخل والخارج .

نعم لا أريد أن أضرب المثل بهذه الأمم ، وإلا كنت مغاليا فى الطعم مشتطا فى الخيال . فالأمة المصرية التى يتشرد أبناؤها وبناتها فى الطرقات جياعا عرايا معرضين لأشد النكبات

فى أخلاقهم وأعراضهم دون أن تتسع الملاجئ والمشاغل فيها لإيوائهم ، والأمة المصرية التى تقذف إصلاحيات الاحداث بمن كن فيها من الفتيات وهن فى سن الثامنة عشرة سن الفتنة والطيش والإغراء ثم لا يجدن لهن جماعة نسوية تضمهن اليها وتراعيهن وتهيئ لهن المستقبل وتحفظهن من السقوط فى سن السقوط ؛ والأمة المصرية التى يعيش أربعة أخماسها فى مقابر ومغاور تسمى بيوت الأرياف ، والأمة المصرية التى يصاب سبعون فى المائة من أبنائها بالأمراض المتوطنة ، والأمة المصرية التى يخطو متوسط الدخل الفردى فيها إلى عشرة جنيهات فى العام ، والأمة التى يعارض ملاكها معارضة شديدة فى حماية زراعها من الحجز على جزء من المحصول يساوى قوتهم السنوى وعلى أدوات الزراعة الضرورية وفاء لإيجار الأطيان هذه الأمة لا تقاس بأمم الشمال فيما تطلبه لأطفالها من رعاية وحماية وترفيه ؛ وإن يكن ذلك من حقها فى القرن العشرين لجماعة من الأناسى لها حقوق الآدميين !

وإنما نريد أن نسير خطوة خطوة . نريد أن ترسم الدولة سياسة معينة للطفولة تظهر آثارها فى القوانين فتمنع التزاوج بالمرضى بأمراض وراثية لتكفل للطفل الصحة قبل قدومه إلى هذا العالم (وهى ماضية فى هذا الطريق) . وتسن من القوانين للأسرة ما يضمن ثباتها ويقيها الهزات التى تقوضها وتشقى الأطفال بلا ذنب ولا جريرة . وتفرض العقوبات على الأولياء الذين يهملون تربية أطفالهم ورعاية أخلاقهم ، والذين يعرضونهم للتسول أو الفساد . أما إذا ثبت عجزهم عن الانفاق أو قصورهم عن الرعاية فتتولى الدولة كفالتهم وتربيتهم فى منشآت خاصة .

وتظهر آثارها فى المنشآت الاجتماعية والصحية ، كمراكز رعاية الطفل والمستشفيات الخاصة بالأمومة والطفولة ، بحيث تحد كل أم وكل طفل مكانا للرعاية والاستشفاء ، وقدرا من الغذاء والدواء ، وجماعات النسوية تستطيع الكثير فى هذا السبيل ، وتستطيع أن تضمن للأطفال الذين حرموا عطف ولاتهم بالطلاق أو الموت أو العمل ، عوضا من العطف المفقود والتربية القويمة ، على أن يكون القانون فى عون هذه الجمعيات والمنشآت .

وتظهر آثارها فى تغذية الأطفال ، فتوفر لهم المواد الأساسية كاللبن والبيض والفاكهة وتتولى الدولة والمنشآت الاجتماعية والهيئات الخيرية تمكين كل طفل فى البلاد من نيل نصيبه من هذه المواد الغذائية ، بنشر الدعوى الصحية عن تغذية الأطفال ، وبمباشرة تغذيتهم بكوب من اللبن مثلا وقليل من الفاكهة عن طريق السيارات المتنقلة والمراكز الثابتة ، فقد ثبت أن هذا الغذاء القليل من اللبن والفاكهة يقيهم كثيرا من الأمراض ، ويوفر نفقات العلاج فى المستشفيات ، وإنه لخير لمركز رعاية الطفل أو للمستشفى أن يتلقى الطفل ليأوله كوبا من اللبن ، من أن يتقاه ليناوله زجاجة من الدواء .

وتظهر آثار هـذه السياسة المرسومة فى المدرسـة ، فتعنى بميول الأطفـال وأستعدادهم الذاتى وتوجههم الدراسة التى تليق بهذا الاستعداد . ولن يكون ذلك حتى تعنى المدرسة من ضغط النظم الإدارية ومن ضغط التكدس فى عدد التلاميذ بالفصول وعدد المواد فى المناهج ، وحتى تشفى من لعنة العقلية الامتحانية التى تحسب العلم حشوا فى الأدمغة لا ثقافة فى العقول ، وحتى توفر لها الكرامة المعنوية والإنصاف المـادى والرقى العلمى .

وحينئذ ينفسح أمامها المجال لدراسة نفسية كل طفل وعقليته دراسة فردية شخصية ، وتستطيع أن تعامل الأطفال كزهرات صغيرة فى حاجة إلى الرعاية ، فلا تسرق طفولتهـم ولا تحاول إنضاجهم قبل الأوان .

وحينئذ تستطيع المدرسة أن تعنى بتقوية شخصية التلميذ وتنمية الفضائل الشخصية والاجتماعية فى نفسه ، وتجد فى أوقات الفراغ متسعا لتربية ذوقه وتدريبـه على التعاون مع الزملاء وإعطائه فكرة عن الحياة فى المجتمع قبل أن يواجهه .

وحينئذ تنبت قصص الأطفال ومكتبة الأطفال وحديقـة الأطفال على أساس استثارة الغرائز وتنشيط الخيال وإحداث المتعة والسرور ، لا على أساس الوعظ الجاف والمنزى المتكلف .

* * *

يجب أن تكون للدولة سياسة مرسومة للطفولة يتعاون فى رسمها إخصائيون فى الطب والتربية والصناعة والاقتصاد والتشريع ، سياسـة تبدأ قبل أن يبرز الطفل إلى عالم الوجود وتلاحقه حتى سن الرشد فى كل مكان يذهب إليه خلال إحدى وعشرين سنة . وأحسب أن رسم هذه السياسة هو العمل الذى ينقذنا من لعنة المجتمع المريض .

ولكن الدولة لا تستطيع أن تضمن لسياستها النجاح ما لم تجـد من المجتمع بصفة عامة ومن الهيئات بصفة خاصة عناية بهذه المرحلة الخطيرة . فكل فرد مثقف وكل جماعة منظمة عليها واجب للضمير والمجتمع والوطن فى رعاية الطفولة والحض على رعايتها .

وتستطيع وزارتا الشئون الاجتماعية والمعارف أن تنظما حملة واسعة النطاق فى سبيل الطفولة . ولكن بعد أن تكون الدولة كلها قد رسمت سياستها ، وحددتها بالقوانين والبرامج فتسير الخطوات جميعا فى تناسق وتوافق وانسجام مع

عبد السلام الشاذلى